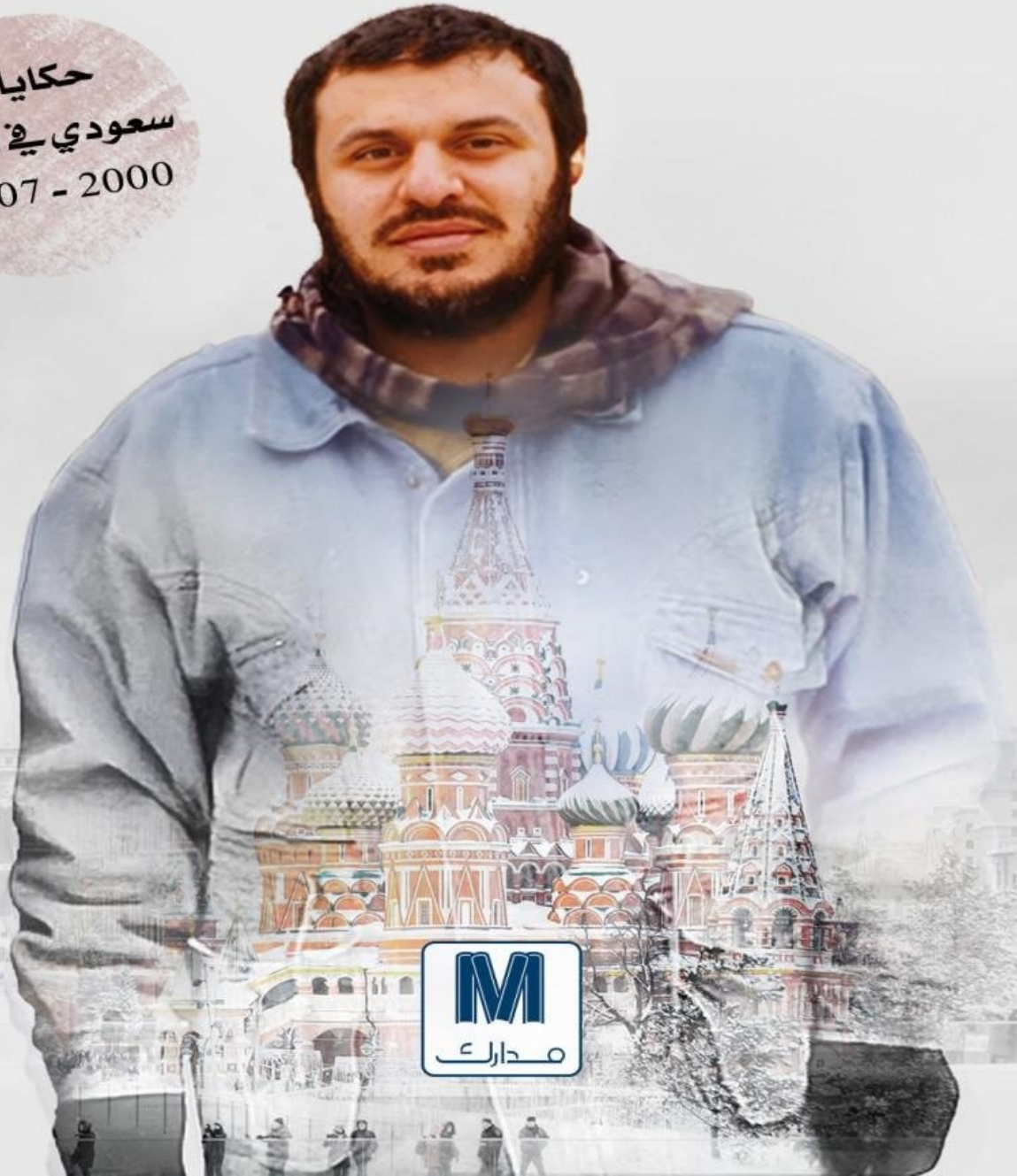


زياد الدريس

# زياد وقف Зядов

حكايات  
سعودي في روسيا  
2000 - 2007م



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital  
Publishing  
Program  
برنامج  
النشر  
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة  
Literature, Publishing & Translation Commission

كتاب زيادوف

حكايات سعودي في روسيا

2000-2007م

زياد الدريس

## الإهداء

إلى

غازي القصيبي، يرحمه الله،

تتمينًا

لإلحاحه عليّ بتأليف هذا الكتاب.

## تمهيد

# حكايتي القديمة مع روسيا

تشكّلت

علاقتي مع روسيا عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المراهقة،

ففي بدايات سن البلوغ تسببت عوامل التعرية البيولوجية في تضخم ملامح وجهي، ما جعل أحد إخوتي يعايرني، حين يتعكر المزاج بيننا بمناداتي: (زيادوف)!

لم أكن أفهم مغزى هذه السخرية، ما قادني للبحث عن جذورها ودلالاتها، حتى تعرّفت إلى ملامح الرجل الروسي "الغليظة". رغم ظني، أو حسن ظني، بأني أقلّ غلظة في الملامح وفي الطباع من الروس. وقد تأكّدت من هذا الظن لاحقاً!

المرحلة الثانية: العلاجية،

حيث علمت في نهايات عام 1413هـ/1993م، أنّ فريقاً طبياً من روسيا بقيادة الدكتور إليزاروف، مؤسس الثورة الحديثة في جراحة العظام حينذاك، سيزور مستشفى الملك فهد التخصصي بمدينة بريدة السعودية، لإجراء عمليات تعديل مشاكل العظام أو قصورها. ذهبت من الرياض إلى بريدة لمعالجة مشكلة الرجل

المزمّنة معي منذ الطفولة، وبقيت تحت مبضع (بل منشار) الجراح ساعات، ثم بقيت منوماً في المستشفى القصيمي الفاخر لشهور تمّددت واستطالت أكثر مما استطالت رجلي القصيرة!

كان للنقاشات (والسوايف) التي تداولتها مع الفريق العلاجي الروسي، خلال السنة إلاّ أسبوعين التي أمضيتها في المستشفى، أثرٌ في بعض التحوّلات الفكرية التي تجاوزت عظامي إلى أعصابي!

بعد خروجي من المستشفى، بقيت آثار "العملية الروسية" ظاهرة في جسدي وخافية في عقلي عدة سنوات، حيث بدأت ملامح مرحلة جديدة في العلاقة بيني وبين روسيا.

المرحلة الثالثة: الدراسية،

إذ في عام 1420هـ/2000م كان القرار بالتحول من اختصاصي في المجال العلمي الذي درسته في كلية العلوم بجامعة الملك سعود بالرياض، ومارست العمل فيه لعشر سنوات، إلى حقل الدراسات الإنسانية. حيث ذهبت إلى روسيا والتحقت بجامعة موسكو التربوية الحكومية وأنجزت فيها خلال ثماني

سنوات (بنظام التفرغ الجزئي) بحثي الماجستير (2002) والدكتوراه (2007) في تخصص علم اجتماع الثقافة، تحت إشراف البروفيسورة كوزنيتسوكا تاتيانا فودروفنا رئيسة قسم علم الاجتماع بالجامعة.

هل توقفت العلاقة بيني وبين روسيا بعد ذلك؟

لا لم تتوقف، لكنها لم تتبلور في ما يمكن وصفه بمرحلة رابعة، بل هي امتدادات لتشكلات المرحلة الثالثة، تظهر بين حين وآخر وحدث وآخر. وقد برزت أكثر ما برزت في أثناء عملي سفيراً لبلادي لدي منظمة اليونسكو بباريس في المدة من 2006 حتى نهاية 2016 حيث استطعت المزج أو الفرز،

حسب الحاجة، في أكثر من موقف بين مزاجي المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، في ما يخص القضايا العربية، والوطنية خصوصاً.

\*

بقي أن أضع تنويهين مهمين،

الأول: إن هذا الكتاب الصغير لا يتطرق إلى تجربتي التعليمية وتفصيلاتها، إلا قليلاً. فهو كتابٌ مخصص لذكرياتي الشخصية عن روسيا، ثم خواطري وآرائي عن العلاقة بين روسيا والعالم العربي عموماً، والعلاقة بين روسيا والسعودية بشكل خاص. أما الجانب العلمي من التجربة فقد وضعته في كتابي: (مكانة السلطات الأبوية في عصر العولمة)، الصادر في طبعته الأولى عام 2009 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وفي طبعته الثالثة عام 2011 عن دار مدارك.

التنويه الثاني: إن انطباعاتي وآرائي في هذا الكتاب هي نتاج السياقات التي تشكلت وكُتبت فيه حينذاك. ولا ينبغي تحميلها ما يستجد من مواقف سياسية أو تحولات استراتيجية طرأت لاحقاً.

\*

شكراً للذين دفعوا بي لخوض التجربة الروسية، وأولهم، الخبير السعودي الأكثر دراية بالشؤون الروسية الدكتور ماجد التركي، ثم الدكتور عبد الله حسن. وكذلك الدكتور ماجد الحربي والدكتورة تاتيانا فودروفنا والدكتور سعيد كاميلوف، وأسماء أخرى يصعب عليّ سردها جميعاً.

شكرا لوالدي يرحمه الله ولوالدي يحفظها الله، اللذين كانا يحفّانني بدعواتهما لي بالحفظ والتوفيق.

وشكراً لزوجتي وأبنائي الذين قبلوا بخوض مغامرة الذهاب معي إلى عالم مجهول عليهم وغامض، لكن ذكرياتهم في السنة الدراسية التي مكثوها معي في موسكو ما زالت تلوح إيجاباً في أذهانهم حتى اليوم.

وشكراً للذين أشاروا إليّ بضرورة توثيق التجربة، أو على الأقل برتوش منها. وعلى رأس هؤلاء الدكتور غازي القصيبي رحمه الله، الذي ألحّ عند زيارته لي في باريس عام 2009 (بعد صدور الكتاب/ الأطروحة) بضرورة وضع ملامح التجربة الروسية في كتاب آخر، مهما كان صغيراً. وها أنذا أعمل بوصيته ونصيحته، على الرغم من مضيّ 14 سنة، على ذلك الأسبوع الباريسي الحافل، الذي أمضيناه سوياً، بين مكثي وفندقه. ولذا أهدي روحه وذكراه الطيبة هذا الكتاب.

زياد

تنومة عسير،

صفر 1445هـ، أغسطس 2023م

(صفحة

لمقولة)

أوروبا: اتساعٌ في الزمان ... ضيقٌ في المكان

أميركا: اتساعٌ في المكان ... ضيقٌ في الزمان

روسيا: اتساعٌ في الزمان ... واتساعٌ في المكان

زياد

## القسم الأول

### أشباح موسكو

سافرت من الرياض إلى موسكو للمرة الأولى، يوم الاثنين ٨ مايو ٢٠٠٠م. كانت الرحلة عن طريق دبي، وكنت أراوح في رحلاتي التالية بين محطتي عبور دبي أو اسطنبول.

ما إن دخلت مطار موسكو، مساء ذلك اليوم، حتى انتابتنني وحشة، لا أدري هل هي وحشة من أشباح الشيوعية التي كنت أتوهمها من كل زاوية ولمبة باهتة في المطار، أم هي وحشة من الوجوه الروسية التي لم أكن أشعر تجاهها بأي ألفة بشرية!

لا أدري... هل كان خوفي في موسكو من الشيوعية نفسها، أم من البشر الروسيين الذين كان يصورهم لنا الإعلام الأمريكي في أفلامه، أيام الإعلام الحار للحرب الباردة، بأنهم كائنات غير بشرية، خالية من العواطف والمشاعر التي يحملها الإنسان الأمريكي، وبالذات المحارب الأمريكي

النبيل!

في الطريق من المطار إلى وسط موسكو كانت الوحشة تخف شيئاً فشيئاً، ليس لأنني بدأت أستأنس الجنس الروسي، ولكن لأنني كنت أرى بين حي وآخر مطعماً من مطاعم ماكدونالدز أو بيتزاهايت، التي وُلدت قريباً بعد موت الاتحاد السوفيتي، فأشعر بألفة غريبة نحوها وكأنها مطاعم "مملوثة"!

قال لي مرافقي: يجب أن تأخذ حذرك من المشي ليلاً لوحده، فجرائم السرقات والقتل في موسكو تزداد كلما ازداد عدد فروع ماكدونالدز وبيتزاهايت! في أيام الشيوعية لم يكن ليجرؤ على السرقة أو القتل إلا عتاة المجرمين، أما الآن فالهواة أكثر من العتاة. ولم يكن يردعهم حينذاك وازع أخلاقي، ولكن صرامة النظام والأحكام، فالإعدام للشارق أو القاتل كان أسهل من كتابة الحكم والنطق به! ثم أشار إلى مجموعة من الفتيات الواقفات على أحد الأرصفة، وقال: أولئك المومسات كان مصيرهن سيكون الإعدام لو أنهن زاولن مهنة البغاء أيام الشيوعية كما يزاولنها الآن.

\*

وصلنا إلى الفندق المطل على شارع ليننسكي بروسبيكت العظيم. كان بهو الفندق مظلماً، مثلما كان وجه موظف الاستقبال الوحيد أيضاً، على الرغم من أن الوقت لم يصل بعد إلى

الحادية عشر ليلاً. لم يكن قلقي وتوجسي بحاجة إلى المزيد من هذه المؤشرات الأولية. استقبلني الصديق الدكتور ماجد التركي في البهو، وقد سبقني بالوصول إلى الفندق بليلتين، وسبقني بالوصول إلى موسكو بسنوات. أضفى عليّ كثيراً من الطمأنينة ثم قال لي: نم الآن، وفي الصباح ستجد الفندق مضيئاً والشارع فسيحاً والطريق إلى الجامعة مريحاً.

الجامعة؟!!

أه نسيت، ظننت أنني جئت سائحاً لأيام وأعود. ما أجمل أن تكون "سائحاً" لا "تتبيس" في مكان واحد.

## الجامعة

لجامعة موسكو الحكومية التربوية مبنيان، المبنى القيصري العتيق ويقع في وسط موسكو. والمبنى السوفييتي السرديني، ويقع في الأحياء الطرفية من المدينة.

المبنى الأول أصبح مكرساً في معظمه للإدارة وعمليات القبول والتسجيل، أما المبنى الآخر فكان للأقسام الأكاديمية والفصول الدراسية.

الأنظمة والإجراءات في المبنى العتيق تشي بأن الجامعة لم تغادر المرحلة السوفيتية بعد، أما الطراز المعماري والنقوش الجدارية للمبنى ففيها عبق العصر القيصري.

أنهينا إجراءات التسجيل في المبنى الأول، ثم انتقلنا بالسيارة إلى المبنى الثاني. ومن مصعد إلى درج ثم مصعد آخر حتى وصلنا إلى قسم السوسولوجيا (علم الاجتماع)، توجهنا مباشرة إلى مكتب رئيس القسم، فكانت البروفيسورة كوزنيتسوكا تاتيانا فيدروفا في انتظارنا. (في الأعراف الروسية ينبغي مخاطبة الشخص رسمياً باسمه الثلاثي، وليس الثنائي فقط).

قالت لي، بعد التحايا والتعارف، إنها هي التي ستكون مشرفة علي برنامجي الدراسي. لم أستطع لحظتها معرفة ما إذا كان هذا الخبر يبعث على الطمأنينة أم على المزيد من القلق!

بعد أن حدّثتها عن نفسي، بناء على طلبها، سألتني عن دوافعي لخوض تجربة الدراسة وأنا موظف غير متفرغ؟ قلت لها بكل وضوح: الدراسة لن تنفعني في الترقّي الوظيفي، لكنّها ستنفعني حتماً في الترقّي المعرفي والثقافي، وستصنع لي قاعدة معرفية جديدة بعد أن قررت التحول من العلوم التطبيقية إلى العلوم الإنسانية. خصوصاً أن الدراسة ستكون في

بلد مغلق بالنسبة إلينا. ولذا فإنني سأعتبر نفسي دارساً ٥٠% من الجامعة و٥٠% من الشارع والمجتمع المجهول.

أعجبها حماسي واندفاعي، على الرغم من أنني تجاوزت حينذاك سنّ الحماس والاندفاع (38 عاماً). ثم كتبت لي في ورقة صغيرة اسم معهد لتعليم اللغة الروسية، تنصّحني بالذهاب إليه.

ودّعتها بكلمتين روسيتين أنرتُ بهما دربي في الفندق المظلم البارحة.

## صدمة "أيديولوجية"!

كانت

الأيام الأولى لي في موسكو "موحشة"، بسبب الإحساس بالغربة في التعامل والعيش مع الشعب الجديد عليّ في طبائعه وملامحه ولغته.

ثم

أصبحت "مربكة" بسبب تزاخم الاندفاع نحو موسكو المدينة المبهرة، والاندفاع نحو الدراسة في تجربة مغايرة للمعهد، في موقعها وتوقيتها وإجراءاتها.

ثم

أصبحت "مبهجة" بسبب الإثراء الذي أجده كل يوم أمامي بين موسكو المدينة وموسكو الجامعة.

كنت

كالطفل الذي قُذف وهو مغمض العينين في يوم ميلاده داخل غرفة مليئة بالهدايا، ولا يدري بأيها يفرح أولاً، بالمكشوف أم بالذي ما زال في الكرتون المغلف!

لم

أُصّب بصدمة ثقافية كالتي يصاب بها الطالب المبتعث فجأة من إحدى قرى نجد إلى جامعة في كاليفورنيا. لكنني أصبت بصدمة أيديولوجية، فأنا الذي نشأت في محيط عربي متجانس في معظمه مع الأيديولوجيا الغربية، أصبحت الآن في أحضان أيديولوجيا مضادة تماماً، حتى ظننت أن لا خيار

لي سوى: المقاومة أو الاستسلام!

ولكني،

مثلما يجري لمعظم ضحايا الصدمة الثقافية، مع مرور الأيام استعدت توازني واكتشفت وجود خيار ثالث!

## ثالث اللغة ... نصف المشاعر

لغات

العالم، وليس الروسية وحدها، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

ثلاث

للتحايا والشكر والمديح (قاموس المجاملة)،

وثلاث

للسباب والشتائم والبذاءة (قاموس السوقية)،

والثلاث

الثالث هو لما خرج عن فعل المشاعر، الإيجابية والسلبية، إلى الأفعال البشرية اليومية (المحايدة).

إذا

أردت أن تتعلم لغةً فحدّد أولويّة الثلث الذي تحتاج إلى تعلّمه أولاً!

كان

صديقي "خلّاد" قد أتقن من اللغة الروسية ثلثها الثاني بسرعة ومهارة، بل ربما ساهم في دعم وإثراء هذا الجانب من اللغة بإضافة نوعية من عندياته، استطاع أن ينحتها ويقدمها هدية للغة الروسية!

وكان

الخبير بليالي موسكو يحاول دوماً تلقيني شيئاً من مفردات قاموسه الثري كي أستخدامها أثناء إقامتي في روسيا. وكنت لا أنفك من التكرار عليه بأني لم أبلغ الثلث الثاني من اللغة بعد، ولست مستعجلاً على بلوغه لأنني قد لا أحتاجه. قال لي: ليس ضرورياً أن تتقن الثلث الأول

حتى تنتقل إلى الثلث الثاني. وكنت أعلم ذلك، وكان هو يعلم ذلك، ولكن كان كل واحد منا يتذاكي، أو يتغابي، على الآخر!

التحقت

بمعهد غوركي لتعليم اللغة الروسية بمدينة موسكو. كان المعهد بعيداً عن مقر سكني، وكنت أمشي قرابة كيلو ونصف من البيت إلى محطة المترو، ثم أمشي مئتي متر من محطة المترو إلى محطة الباص، ثم أمشي نصف كيلو من محطة الباص إلى مدخل المعهد، ثم العودة نهاية اليوم بنفس الطريقة.

كانت هذه المشاوير اليومية كفيلاً بتعليمي اللغة الروسية في أول اليوم، والنزق الروسي في آخره!

فوجئت

بأن اللغة الروسية تهتمّ بالقواعد والنحو والصرف كثيراً جداً كاللغة العربية واللغة الفرنسية، لا كاللغة الانجليزية. ولذا تفوّقت تلك اللغات في إنتاجها الأدبي والإبداعي، بينما تفوقت الانجليزية في الإنتاج والتصنيع حين تنازلت براغماتياً عن بعض الطقوس النحوية في عهد الكلاسيكي.

من فرط المبالغة في التعقيد النحوي للغة الروسية، الذي تفوقت به على العربية والفرنسية، أن المعلمة أعطتنا درساً كاملاً عن طريقة كتابة اسم عائلة الشخص ونطقه حسب موضعه من الإعراب، وإن كان الشخص المنادى مذكراً أو مؤنثاً فإنه لا يتغير اسمه الأول فقط، بل ويتغير نطق

وكتابة اسم عائلته أيضاً، فزوجة نيكيتا خروتشوف هي نينا خروتشوفا وليس خروتشوف!

ولا

يمكن لأي روسي أن يدّعي بأن ملافظ لغته موسيقية، كملافظ اللغة الفرنسية مثلاً. فالرجل الفرنسي حين يتحدث يكون أكثر رقةً من حديث المرأة الروسية، والرجل الروسي حين يتحدث وهو مسرور يكون أكثر غلظةً من الفرنسي حين يتحدث وهو غاضب!

لكن

هذه اللغة الغليظة نطقاً، هي اللغة التي أنتجت كتابةً عدداً من روائع الأدب العالمي بأيدي: تشيخوف وغوغول ودوستويفسكي وتولستوي وليرمنتوف وغوركي. وهي اللغة التي سميت لغة بوشكين الكاتب المدهش شعراً ونثراً.

## يا سبّاکا я собака

على

سيرة اللغة، زارني أحد الأصدقاء، وقبيل عودته إلى الرياض ذهبنا نتجوّل في أحد الأسواق الشعبية المنبسطة على أحد أرصفة موسكو.

توقّف

صديقي عند أحد الباعة الروس، وتمعّن في بضاعته المتنوّعة والجمّابة. انجذب صديقي إلى أحد الأصناف المعروضة في بسطة الرجل، فطلب مني أن أسأله عن سعرها ففعلت وأبلغته. فأراد أن "يكاسره" فقال قل له سأخذها بهذا السعر (نصف السعر الذي قاله البائع!). قلت: لكن هذا خصم كبير

ولن يقبل به. قال أعرف، لكنني بعد ذلك سأزيد في القيمة قليلاً قليلاً حتى يقبل. أبلغت البائع بأن صاحبي يعرض عليك نصف السعر. وفي رد فعل مفاجئ، توقعته من قبل لكن ليس بهذه الدرجة، غضب البائع وبدأ يستخدم (الثالث الثاني) من لغته!

حينها

بدأ الصديق الماكر في استخدام التكتيك "الوطني" الذي خطّط له فقال فوراً: خلاص قل له سأخذه بتخفيض ربع القيمة فقط. لكن تكتيك المكاسر أصبح بلا فاعلية، إذ خاطبني البائع مزمجراً: قل له لن أبيع حتى بالسعر الكامل!

حاولت الإصلاح بينهما، فصاحبي تنازل تماماً ويريد الشراء بالسعر الأصلي، والبائع عافت نفسه عن البيع، ولم أنجح في عقد الصفقة بينهما. وقلت: خلاص دعنا نمش، قد نجدها في محل آخر. ظلّ البائع يزمجر في وجه المشتري الذي تعلّقت نفسه بالبضاعة وظلّ متمسكاً بهدوئه طمعاً في أن يُلين ذلك نفس البائع فيوافق. وعندما يئس غادرنا

سويّاً. وبعدما ابتعدنا قليلاً عن المحل (مسافة تكفي لوصول الصوت، وتكفي للهرب!) التفت إليّ صديقي وقال: وش معنى (كلب) بالروسي؟ استغربت سؤاله، لكن لأنه منفعل لم أتلقأ

في إجابته فقلت: سبّاك... كلب بالروسي سبّاك. وفي استدارة سريعة وخاطفة التفت إلى البائع البعيد

قليلاً وقال مشيراً بإصبعه إليه بمنتهى الغضب: "يا سبّاك". وأحسّ صاحبي براحة تنفيسية بعد انتهائه من عبارته، لكنه فوجئ بأن البائع الذي سمع العبارة بوضوح لم يفعل أو يغضب، بل كان يردّد بصوت مرتفع مع قهقهة خفيفة: "كانيچنا .. كانيچنا"، أي: بالطبع بالطبع. وكنت أكتّم

ضحكةً بيني وبين نفسي ليس هذا وقتها، فسألني: ما الأمر؟ قلت له: أنت قلت للرجل "يا سبّاك"، ومعنى "يا" بالروسي: أنا. وحين فهم الرجل المقلب اللغوي الذي وضع نفسه فيه، نظر إليّ نظرة عتاب فقلت له: أنت سألتني ما معنى (كلب) ولم تسألني ما معنى (أنت)!

## الفودكا "تسكّر" السماعة!

عندما

تسكن في موسكو فستحتاج حتماً إلى هاتف منزلي يخفّف عنك بعض أعباء المشاوير الطويلة والمتباعدة في تلك المدينة المترامية (أتحدث عن العام 2000 حيث لم تصبح بعد خدمة الجوال ميسرة في البلدان بنفس المستوى)، لكنك ستتمرّ كثيراً بحالات ضغط نفسي تودّ فيها أن "تمكع" سلك

الهاتف بلا رجعة ... لماذا؟!

لأنه

مقابل كل عشر مكالمات ترد إليك في منزلك، واحدة منها فقط تخصك، والتسع الأخرى "تسكّر" السماعة ... بسبب خطأ في الرقم أو خطأ في الاسم، أو خطأ في الفعل أصلاً!

وهذه

المكالمات الخاطئة لا تأتيك فقط في وقت متأخر من الليل، كما في البلدان الأخرى، بل قد تأتي أيضاً في وقت متأخر من الصباح أو في وقت متأخر من العصر، وقد تكثر في نهاية الأسبوع كما في البلدان الأخرى، ولكن قد تكثر أيضاً في بداية الأسبوع وفي وسطه وفي نهايته، كما في

روسيا!

والسيناريو

المعتاد في مثل هذه المكالمات هو إصرار المتصل أنه على حق، وأنه يريد التحدث مع سيرجي أو نيكولاي أو نتاشا، وبعد جدل طويل لن يجدي معه دفاعك عن حقلك في أن لا تكون سيرجي أو نيكولاي، سوف "يسكر" المتصل السماع في وجهك لأنك لست سيرجي!

## الهروب من (الغيتو) الخليجي

في

يوم الجمعة 8 فبراير 2002 وصلت أسرتي الحبيبة إلى موسكو، وذلك للبقاء معي عاماً دراسياً كاملاً هناك.

شعرت

بسعادة غامرة بمجيئهم، ليس لأنهم سيخففون عني الغربة الانفرادية فقط، ولكن لأنهم سيخوضون تجربة فريدة للعيش في موسكو، لا تتاح لكثير من أقرانهم.

كنت

متوقفاً توجسهم من بلد لم يذهبوا إليه من قبل، ولم يسمعوا أحداً من معارفهم أو أصدقائهم قد ذهب إليه من قبل. لأجل هذا بادرت باستئجار شقة في (عمارة إيريدان)، وهي برج سكني يقع في أطراف موسكو، بعيداً عن ساحة الكرملين وسط المدينة. يجتمع في هذا البرج معظم السعوديين

والخليجيين الموجودين في موسكو حينذاك، وهم قلة يقومون بأدوار رسمية محددة.

لم

يكن موقع البرج المنعزل يساعدني في مجال دراستي "السوسيولوجية"، وفي التعرف على موسكو وأهلها وتاريخها وطبائعها من العمق. لكنني كنت مستعداً للتضحية من أجل أسرتي إلى حين يشعرون بالإلف والاطمئنان الذي يجعلهم أقل تمسكاً بالبقاء في ذلك (الغيتو) الخالي من النكهة الروسية.

كانت

زوجتي أم غسان عند عهدي بها في شغف التعرف على الجديد، إذ أبدت، بعد أقل من شهر، اكتفاءها من البرنامج النسوي السعودي الذي كان يجري في الإيريدان، وقالت: لم أشعر بطعم موسكو حتى الآن!

وفي

يوم السبت 2 مارس انتقلنا إلى شقتنا الجديدة المطلّة على نهر موسكو في عمق العاصمة الروسية، قريباً من: الساحة الحمراء وقصر الكرملين ومجلس الدوما ومسرح البلشوي وجادة ستاري أرباط العتيقة.

كان

كل شيء حولنا يوحي لنا بأننا في عالم جديد علينا، ويشعرنا بأننا في روسيا حقاً: جيراننا من السكان الروس الذين يملأون شقق العمارة السوفييتية العريقة. البدلة الكاكية ذات الأزرار المئة التي يرتديها حارس العمارة الذي يبدو كأنه أحد أبناء ستالين. الحديقة الداخلية التي

يلهو بها أطفال سكان العمارة وهي مغطاة بالثلج الأبيض العصي على الذوبان. رائحة الفودكا التي تفوح من فم جاري العزيز وهو يقول لي كل مساء: صباح الخير. حتى البقالة التي في الشارع المجاور، ولم يعلم صاحبها بعد أن الاتحاد السوفييتي قد سقط، ما زال نظامها كالصيدلية تدخل

وتقف عند الكاونتر وتؤشر بيدك على ما تريده دون أن تحدد الكمية فهو غالباً سيعطيك الكمية المتعارف عليها، وما عليك سوى تجهيز الروبلات المكافئة لما أعطاك دون جدال.

كنت

أستمتع كثيراً كثيراً بهذه الأجواء، إذ كانت المشقة فيها أقل بكثير من متعة الاكتشاف والعيش في تجربة حياتية جديدة.

## قصيدة عن شقتنا!

بعد

مضي أسبوعين من انتقالنا من الشقة (السعودية) إلى الشقة الروسية، وفي أحد أيام نهاية الأسبوع أردت أن أطمئن لارتياح أبنائي لقرار الانتقال فسألتهم: أيهما أفضل عندكم شقتنا

الأولى أو هذي؟ أجابتنى ثريا (14 سنة) ومنيرة (8 سنوات) بخليط من الرضا والمجاملة لقرار أبيهم،

وصمتت علياء (6 سنوات)، ولم يفهم غسان (4 سنوات) المقصود من السؤال، ولم تفهم نور (11 شهراً) ما معنى سؤال!

وفي

مساء اليوم اللاحق جاءتنى علياء بورقة صغيرة عليها عبارات مصفوفة تحت بعضها. سألتها ما هذا؟ قالت: شعر كتبتة في البيت الجديد اللي سألتنا عنه البارحة.

"ما أحلى شقتنا الجديدة

أقدر

أقعد فيها ست شهور..

وما

أطفش.

حنا

إذا بنروح لشقة الثالثة..

أنا

ما أبغى أروح معكم

لأن

هذي الشقة أجمل من

الشقة

اللي بتروحون لها".

علياء،

موسكو، مارس ٢٠٠٢

ابنتي

الصغيرة لم تكن قد فهمت بعد معنى الشعر والفرق بينه وبين النثر. لكنها فهمت شيئاً واحداً هو أنّ الشعر يُستخدم للتعبير عن مشاعر الإعجاب القوية، وقد أوصلت رسالتها بالفعل.

## البرد الروسي

البرد

الشديد والصقيع هو أحد عناصر الهوية الروسية، ولذا فإنك تجد معظم ملصقات الأفلام الروسية أو التي عن روسيا ذات خلفية جليدية بيضاء. كما تشعر وأنت تقرأ رواية روسية بلذعة برد خافية بين السطور، حتى رغم حرارة المشهد!

ولا

أنسى الموقف العصيب الذي مررنا به مع ابني غسان وكان عمره حينذاك أربع سنوات، إذ تحمس في اللعب مع الأطفال داخل حديقة السكن فخلع حذاءه وبدأ يركض حافياً على صقيع الأرض. وفي لحظة استرخاء أحس بخدر في رجليه فنظر إليهما فإذا هما زرقاوان فصرخ يبكي، ونزلنا أنا وأمه نركض

وإذا بجارتنا الروسية في الدور الأرضي قد سبقتنا فحملته وبدأت بفرك الأقدام بخرقه دافئة حتى يجري الدم فيهما من جديد. وبعد أن نجحت في مهمتها النبيلة، قالت لنا: لو تأخرنا قليلاً لربما كان بتر القدمين هو الحل الوحيد! شكرناها كثيراً وصعدنا بطفلنا إلى الشقة ونحن

ننوي البحث له عن جزمة تشبه جزمة ابن ستالين حارس العمارة المضاد للجليد!

وعلى

نفس السيرة، فإنني لا أنسى في يوم عيد الأضحى حين قررت أن أجرب ممارسة طقوس الأضحى مع المسلمين الروس (الشيشانيين)، حيث أخبروني بأن الذبح سيكون في الصباح الباكر من يوم العيد في مزرعة خارج موسكو مصرح للذبح فيها، وكانت درجة الحرارة في ذلك الزمان والمكان قرابة ٢٥

تحت الصفر. قال لي الوسيط إنه يمكنني أن أفوضه بالذبح والسلخ والتقطيع وإحضار الذبيحة إلى البيت عوضاً عن مشقة خروجي في هذا الوقت المبكر والبرد القارس (أفضل أن أكتبها هنا بالصاد وليس السين!). لكنني استحضرت كل ما لدي من (مرجلة) وقلت له: لا، بل سأذهب معكم وأذبح أضحيتي

بنفسي، فلماذا تتحملون أنتم المشقة ولا أتحملها أنا؟! في الحقيقة كان يمكنني أن أزايد على أناس عاديين، لكن ليس على شيشانيين تعودوا على ذبح (الضحايا) منذ سنين طويلة!

خرجت

إلى المزرعة/ الفريزر ووقفت مع الشيشانيين وهم يذبحون الأضاحي واحدة تلو الأخرى، فلما جاء دور أضحيتي أعطوني السكين حسب طلبي (المسبق) فلما وجدت أن يدي بالكاد تتحرك الدماء فيها فكيف سئسبيل دماء الخروف قلت لهم بخشوع: وما الحاجة في أن أذبح أضحيتي بنفسي، هل أنا أفضل

منكم ديناً أو تقوى! نحن كلنا مسلمون والحمد لله ويجب أن نثق في بعضنا البعض. تأثروا من كلامي وكاد أن يعلو التكبير بيننا، فذبحوها وما كادوا يفعلون. وكنت سأنتظر معهم بالطبع حتى يقطعوها ويعطونها، فلما رأوني أكاد أزرق من البرد أخذني الوسيط إلى السيارة وقال انتظرنى

هنا. لكن لأن الحياء تجمد في عروقي فقد قلت له وأسنانى تتراقص من فرح العيد: خلاص الذبيحة كلها لكم صدقة ورجعني للبيت.

وحين

دخلت البيت قالت لي أم غسان: وين الضحية؟ وكدت أقول لها: أنا. وكانت تريد أن تعمل لنا أكلة "الحميس" السعودية المألوفة يوم الأضحى. قلت لها: تبين أن الجزارين ضعاف وفقراء جداً، فتصدقت بها كلها عليهم.

أدركت زوجتي

من بقايا الزرقة المائلة على وجهي أن البرد قد خذني، فقامت وأعدت لنا في ذلك العيد الصاقع: حميس دجاج!!

**هوشة روسية**

بعد

مضي شهرين فقط من مجيء أسرتي معي إلى موسكو، كنت جالساً وحدي في مكتبي الصغير بالبيت أقرأ وأكتب، حيث اقترب موعد تسليمي أطروحة الماجستير، وإذ بي أسمع خصاماً (روسياً) بين الأطفال في حديقة العمارة، مثلما أسمعه كل يوم. لكن بعض الأصوات المشاركة في الخصام الطفولي بدا

مألوفاً وقريباً إلى قلبي.

قمت

إلى نافذة مكتبي المطلّة على الحديقة وفتحتها فكانت المفاجأة أن ابني علياء وغسان قد تجاوزا مرحلة التفاهم مع الجيران الروس أثناء اللعب إلى مرحلة التشاجر معهم باللغة الروسية، وهذه مرحلة لغوية متقدّمة، إذ يصعب على الغاضب أن يجيد ترتيب كلامه من لغته الأصلية، فكيف

به أن يتشاجر بلغة أجنبية!

كان

ذلك الموقف برهاناً خالداً في ذهني على سرعة تعلّم الأطفال إذا وُضعوا في بيئات تعلّم طبيعية خارج الفصول المقولبة.

## همس في مسرح البلشوي

لا

تُذكر الثقافة والفنون في موسكو إلا ويُذكر مسرح البلشوي العريق، القابع في وسط موسكو التاريخي.

ولا

تُذكر فرقة مسرح البلشوي إلا وتُذكر مسرحية (بحيرة البجع)، الباليه الموسيقيه الصامتة، للموسيقي الروسي المبدع تشايكوفسكي.

حضرت

العرض في السنة الأولى من وصولي روسيا، رفقة الصديق الدكتور عبد الله حسن. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها عرض باليه صامتًا. كان يجب أن أفهم القصة عبر الحركات الرمزية والموسيقية للعارضين، وكيف لي ذلك بسهولة وقد تعودت على مشاهدة مسرحيات عربية ثرثرة!

حين

خرجنا من المسرح قلت لعبد الله فهمني للحكاية، وفسرت له معنى بعض الحركات الرمزية، فأثنى على قدرتي الاستيعابية رغم أنه الحضور الأول لي.

بعد

سنتين حضرت العرض مرة أخرى، بصحبة زوجتي أم غسان. وكنت لفرط حماسي وإعجابي بالمسرحية وبفهمي لها، أهمس في أذن زوجتي بتفسير بعض المشاهد الرمزية في أثناء العرض. ولأن المسرحية صامتة خالية من أي كلام فإن همسي كان يُحدث ضجيجاً في المسرح لم أفطن إليه إلا عندما رأيت

الرؤوس وسط الضوء الخفيف، تلتفت إليّ وتنهمني بصمت يشبه صمت الراقصين على خشبة المسرح!

ظلت

مسرحية (بحيرة البجع) منذ عرضها الأول على مسرح البلشوي بموسكو عام 1887م وحتى اليوم، رمزاً خالداً للفن النخبوي الرفيع.

ورغم

أنها تعرض في مسارح عالمية في الغرب والشرق، إلا إن حضورها في مسرح البلشوي له طعم آخر.

## الكلب والحجاب!

عصرَ أحد الأيام، وبعد أن بدأت بوادر الربيع تذيب البياض بالاخضرار، خرجت ابنتي الكبرى ثريا وقد كانت محجبة مع أختها منيرة تتمشيان على النهر المجاور لبيتنا. حيث بدأت مياه النهر تعود لطبيعتها السائلة بعد أن ظلت جامدة طوال الأشهر الماضية.

كانت النزهة ممتعة للفتاتين الصغيرتين، حتى رأهما من بعيد رجل "ستاليني" يلبس بدلته العسكرية المليئة بالألوان والأوسمة والنياشين، التي لم يخلعها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

لم يكن الرجل وحده ضخم الجثة، بل حتى الكلب الذي معه، كان ضخم الجثة.. ضخم الأنياب.. ضخم الصوت!

وما إن رأى (المحارب القديم) ابنتي ثريا محجبةً حتى قام بفك السلسال الذي يمسك به كلبه المتوحش فانطلق راکضاً ونباحه يجلجل في الشارع تجاه ابنتي. فانطلقنا تركضان بلا وعي أو تخطيط اتجاه، فوجدت منيرة شجرة كبيرة فاخترت فوراً بها. أما ثريا المستهدفة فقد استمرت تركض في الاتجاهات الأربعة!

كان المحارب/ الجبان يضحك على مشهد الصغيرتين المذعورتين بكل وحشية. ويزداد ضحكاً وانشراحاً حين يلتفت إلى ركض الفتاة المحجبة!

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تمنيت فيها مجئ (رامبو)، وخروجه من استديوهات هوليوود إلى الحقيقة!

بعد أن أشبع الوحش جوعه لمقاتلة الضعفاء، استدعى كلبه وربطه بالسلسلة التي في يده من جديد. وأكمل الكلب ورفيقه نزهتهما على النهر.

وخرجت منيرة من جذعها الذي اختبأت فيه، ولحقت بشقيقتها ثريا التي كان قد أنهكها الذعر قبل التعب. وسارتا عائدتين إلى البيت لتحكيا علينا المشهد الستاليني المتوحش. ولم يخفف علي ثريا رعبها المضاعف، إلا "نُتوق" أختها الصغرى نور تحبو إليها فجأة من تحت الطاولة، كأنها تريد الاطمئنان عليها.

## خمسة مساجد لمليون مسلم!

يُقدّر

عدد المسلمين في روسيا، حسب بعض المصادر، بأكثر من 25 مليوناً، وفي العاصمة موسكو وحدها يوجد أكثر من مليون مسلم. ورغم هذا العدد الكبير فإنه لا يوجد في موسكو سوى خمسة مساجد فقط!

ورغم

أن الأعراق الإسلامية الأبرز والأكثر نفوذاً في روسيا هي: التترية والشيشانية والأذرية، إلا أن معظم هذه المساجد الخمسة، إن لم تكن كلها، قد بنيت بمبادرات من المسلمين التتار، وليس من الشيشانيين أو الأذريين الذين يمثلون مافيا تجارة العقار وأسواق التجزئة في موسكو،

على التوالي!

كنا

نحن، ومعظم المسلمين الخليجين والعرب في موسكو، نصلي الجمعة في المصلى المعدّ داخل مقر السفارة السعودية بموسكو.

وإذا

كان عندي ضيوف كنت أذهب بهم للصلاة في المسجد التتري الأزرق، بوصفه معلماً سياحياً أخذاً في موسكو، بل وعلى مستوى روسيا كلها.

لاحقاً،

علمت بأن هذا المسجد التاريخي قد هدم عام 2009 بسبب تسربات مياه تحته من النهر المجاور مما جعله مهدداً بالانهيار في أي لحظة.

أعيد

بناء المسجد بحجم وسعة أكبر بحيث أصبح يستوعب أكثر من 10 آلاف مصل، وافتتحه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عام 2015 بحضور شخصيات عربية وإسلامية متنوعة.

لكن

مدينة المليون مسلم ما زالت بخمسة مساجد فقط!

## القسم الثاني

يحتوي هذا القسم أبحاثاً أقيمتها في جامعات أو مراكز بحوث روسية، عن العلاقات السعودية/ الروسية، وعن العلاقات التاريخية بين الثقافة الروسية والثقافة العربية والإسلامية خلال حقبة متوالية.

وقد أبرزت صحيفة الشرق الأوسط تلك البحوث بنشرها حينذاك مخدومة وبارزة، بمبادرة مشكورة من رئيس التحرير حينذاك الأستاذ عبدالرحمن الراشد، بحيث سمعت تعليقات لاحقة على تلك البحوث من بعض المستعربين الروس من قراء الصحيفة الدولية.

سأعيد هنا ما قلته في مقدمة الكتاب، من أن هذه الآراء والأقوال يجب أن لا تُحلل وتحاكم خارج السياقات الزمنية والجيوسياسية التي كُتبت فيها، فالسياسي أسرع وأبرع من المثقف في تكييف الموقف وإعادة بنائه حسب المواقف المستجدة والعلاقات المتبدلة.

## أعراض سبتمبر

في عام ٢٠٠٠ وصلت روسيا، وحاولت التعرف على ما فيها ومن فيها. وكنت في كل ذلك لا يغيب عن ذهني القطب الآخر، الأبعد جغرافياً والأقرب دبلوماسياً. إذ لا يمكننا أن نفكر في روسيا من دون أن تزحف أميركا إلى ناصية التفكير!

وفي عام ٢٠٠١ وقعت أحداث سبتمبر الشنيعة في الولايات المتحدة، فانقلب مزاج العالم وأصبح الكل متهم حتى تثبت براءته. وازدادت ضغوط استخدام مصطلح (الإرهاب) وخصوصاً ضد بلادي المملكة العربية السعودية. وأوشكت الولايات المتحدة أن تتحول تجاهنا من صديق استراتيجي إلى عدو تكتيكي!

حينها بدأت أنشغل أكثر بجدوى تنشيط علاقاتنا (الخاملة) مع روسيا، فكتبت هذا المقال:

## حارة الكون تتسع لصديقين بدلا من واحد

أجدني

مضطرباً قبل الانهماك في الغزل الموسكوفي، أن أكرّر قناعتي القديمة دوماً بأن الأرض لن تتحول إلى (جنة) لو قام «فاعل خيرا!» باغتيال أميركا ذات صباح، لكن الأرض أيضاً لن تتحول إلى (جحيم) لو ماتت أميركا بالسكته!

إذا

ما الحكاية؟

الحكاية

أن امريكا الآن بحكم أنها الأقوى بين دول العالم، تمارس دورها الطبيعي، وليس حقها الطبيعي، في فرض سياستها ومعاييرها الخاصة بها على الآخرين. هذا ليس تبريراً لأخلاقيات امريكا، لكنه تفسير لها.

هل

يعني هذا أن يكون موقفنا إزاء هيمنة امريكا هو: محاولة التبرير «التأمرك»، أو محاولة الاغتيال «التعنف» فقط!

إذا

كنتَ طفلاً تقلقك تهديدات وضغوط طفل الجيران الأقوى منك، فإن هناك طرقاً عديدة للحد من هذا التهديد تتجاوز مجرد الانسحاب من مسرح الحارة، والانزواء مسجوناً في بيتك في انتظار موت الطفل الجبار!

الحياة

لعبة أطفال كبار، كانوا في طفولتهم يلعبون بالألعاب النارية، ثم كبروا واستمروا يلعبون بالصواريخ النووية، وابن الحارة الصغير ما يزال منزوياً في بيته يخشى صاروخاً نووياً.

\*

\*\*

هل

يكفي هذا لايضاح إشكال وتبعات تفرد بطل واحد بالهيمنة على الحارة.. حارة الكون التي تنسع وتضيق، تتطور وتتوحش، تتقارب وتتباعد.

كان

الاتحاد السوفياتي يؤدي دوراً لم يُدرَك حجمه الا بعد موته، فهل عدم الكون من بديل يؤدي نفس الدور التوازني المفقود الآن؟

لقد

أتاحت لي مدة إقامتي في موسكو التعرف على روسيا عن قرب، والاطلاع على القواسم المشتركة بين الشعبين الروسي والعربي، والحضارتين الأوراسية والاسلامية، مما كان مغيباً عنا بيد الاعلام الحار للحرب الباردة.

قد

يقال: ما جدوى الحديث الآن عن رجل ميت، وقد تعود الناس دوماً مدح الميت وذم الحي؟! لكني الآن لا اتحدث عن الاتحاد السوفياتي الميت، بل عن روسيا الحية، ولا أريد أن أنساق وراء المتباكين على الاتحاد السوفياتي، الذين وصفتهم صحيفة (فريميا نوفوستيه) الروسية بالقول:

«العرب بحاجة إلى الاتحاد السوفياتي، والأمريكان بحاجة إلى روسيا». فالشق الاول من العبارة يقوم على انتظار ما لا يجيء، لكن الشق الثاني من العبارة يحمل ديناميكية قابلة للتوليد. فاذا كانت أمريكا، بجلالة قدرها،

بحاجة

الى روسيا، فإن هيكل روسيا العظمي ما زال بلا شك يحمل لحماً حياً قابلاً للانقسام والنمو.

هذا

يقودنا الى سؤال مكرر ممجوج: هل يجب أن نضع بيضنا كله في سلة واحدة، سلة امريكا؟! قد يتبعه جواب أكثر مجاجة وهو أن سلة روسيا مخرومة، لكني سأجرؤ وأقول إنني مستعد للمساهمة في ترقيع السلة المخرومة ما دام أن لي منفعة مشتركة في ترقيعها.

\*

\*\*

كنا

نشعر لسنوات طويلة أن موسكو تقع في أقصى الارض، وأن واشنطن هي المحطة الاولى لنا في طريقنا الطويل نحو موسكو. وقد لمست هذا بنفسى حين سافرت الى موسكو للمرة الاولى، وفوجئت وفوجئ الذين سألوني عن الرحلة بأن موسكو لا تبعد عنا أكثر من خمس ساعات طيران، أي إنها أقرب إلينا

من بعض الدول العربية!

هل

القرب الجغرافي وحده يكفي؟ إنفاصل عديدة من القرب المعنوي تطغى بكثير على القرب الحسى، فعلاقة روسيا بالإسلام تقارب ألف سنة، أي قبل اكتشاف أميركا ذاتها. والمسلمون الذين يشكلون قرابة 28% من مجموع السكان في مناطق الاتحاد السوفياتي السابق، ويتجاوز عددهم الثمانين مليوناً

يساهمون مع غيرهم من الشعوب السلافية، في تكوين توليفة متعددة الثقافات والأعراق لسكان تلك المنطقة الشاسعة من العالم.

والآن

بعد زوبان الاتحاد السوفياتي ما زال يقطن روسيا الاتحادية قرابة 25 مليون مسلم، وفي موسكو وحدها قرابة مليون مسلم.

أما

على الصعيد الثقافي فقد بدأ تدريس اللغة العربية في جامعة بطرسبورغ عاصمة الامبراطورية الروسية عام 1819.

وفي

هذه المدينة وحدها تتوافر قرابة عشرة آلاف مخطوطة عربية مصنفة ومفهرسة.

هذا

عدا الحديث المكرور عن تأثير الأدباء العالميين الروس بالثقافة الإسلامية أمثال الشاعر بوشكين والروائيين تولستوي وليرمنتوف وغيرهما.

أما

على الجانب السياسي فلا يغيب عن البال أن الاتحاد السوفياتي هو أول دولة في العالم اعترفت بالكيان السعودي في 6 فبراير 1926، تبعها قيام الملك فيصل رحمه الله (الأمير فيصل آنذاك) بزيارة الاتحاد السوفياتي عام 1932. وموقف موسكو من قضية فلسطين ظل في كثير من أطواره

موقفًا إيجابيًا أو محايدًا على الأقل.

\*

\*\*

سقت

ما سبق، لا محرّضاً لقطع العلاقات مع أمريكا، ولكن لتجسير العلاقات بين الدول العربية، دول الخليج خاصة والسعودية بالذات، مع روسيا. فنحن ندرك أن روسيا الآن ليست دولة عظمى، لكن ربما تكون قادرة على تحقيق دور توازني عظيم في المنطقة.

بل

الامر قد يتجاوز ذلك، فقد طرح أكثر من كاتب غربي تساؤلاً حول ما إذا كانت روسيا ما تزال دولة عظمى؟ ولقد أقرّ معظمهم بذلك من حيث صناعاتها الحربية وترسانتها النووية. لكن روسيا تملك أيضاً من مواصفات «العظمة» مساحتها الشاسعة من أقصى شرق الكرة الأرضية، بإطلالة على

الغرب الأمريكي، إلى حدود فنلندا غرباً. وحدود روسيا تتاخم قرابة خمس عشرة دولة آسيوية وأوروبية، شرقاً وغرباً وجنوباً، إضافة إلى تعدد أعراقها وثقافات وإرثها التاريخي. وتضمّ هذه الأرض الشاسعة ثروات طبيعية هائلة من النفط والغاز والألماس والذهب والأخشاب، والماء

الذي سيصبح نطف القرن الجديد، إضافة إلى تنوع خلفيات شعبها وما تملكه من قدرات بشرية مؤهلة لمواصلة المسيرة العلمية التي قادت أول إنسان في العالم (يوري جاجارين) من روسيا إلى الفضاء.

\*

\*\*

إن

المكان ما زال متاحًا لوقع الخطى العربية، وصيد المشاعر.. قبل أن تطير اليهود بأرزاقتها!  
(كان عدد من رجال الأعمال من يهود روسيا قد هيمنوا فور سقوط الاتحاد السوفيتي على  
مؤسسات نفطية وإعلامية كبرى، لكن الرئيس بوتين تدخل لاحقاً في انتشار بعض تلك  
الصفقات المليئة

بالفساد). إذ لعبة التوازنات في السياسة هي أبرز اللعبات التي يمكن أن تقوم بها الدول غير  
المتاح لها أن تقوم بدور البطولة، في حينها. والبيت الذي يفتح على الخارج ببابين أكثر  
صحةً وجمالاً وتهوية من البيت الذي يفتح بباب واحد. فلنفتح الباب على موسكو، ولنصعد  
معها

الاستثمار السياسي والاقتصادي والثقافي، ولنعزز السفارات العربية في موسكو، ونمنحها  
من القدرات والإمكانات ما نمحه للسفارات العربية في واشنطن.

فإذا

كانت ابتساماتنا الدبلوماسية في واشنطن قد تضيع وسط ابتسامات وأموال ونفوذ اللوبي  
الإسرائيلي، فإنها قد تجد لها في موسكو «عيناً» صاغية!

(صحيفة

الشرق الأوسط

14

يونيو 2002م)

## الفيصل يعود من جديد

في شهر أكتوبر من العام ٢٠٠٢ قرر الأمير تركي الفيصل، رئيس مجلس إدارة مركز الملك  
فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، القيام بزيارة إلى دولة روسيا الاتحادية وتنظيم  
ندوة عن العلاقات السعودية الروسية، بمناسبة مرور سبعين عاماً على زيارة الملك فيصل  
إلى روسيا.

وقد شرفني سموه بأن أكون من ضمن الوفد الذي يضم: الدكتور يحيى بن جنيد، الدكتور  
عبدالرحمن الشبيلي، الدكتور فهد السماري، الدكتور ماجد التركي، الدكتور عوض البادي.

وقد شاركت في الجلسة الثانية من الندوة: (العلاقات السعودية الروسية، آفاق المستقبل) بورقة بحثية جعلت عنوانها: "بيرسترويكا.. العلاقات السعودية - الروسية"، بجوار الباحثين الروسيين: الدكتور إيغور إيغور تيموفيفيف والدكتور الكسندر مالشنكو.

وفي ما يلي نص الورقة:

## بيرسترويكا.. العلاقات السعودية - الروسية

في

ما بعد أحداث 11 سبتمبر الشهيرة، أصبح الحديث عن تقويم العلاقات بين دولتين من هذا العالم أمراً سهلاً وصعباً في الوقت نفسه، فهو سهل لأن إعادة ترتيب العلاقات الدولية أصبحت مطلباً مشاعاً لمعظم أعضاء خريطة الكون، بناءً على ما تمخض عنه انفجار بالون العلاقات والمصالح

والقناعات يوم 11 سبتمبر. وهو صعب لأن هذه الأحداث ذاتها تلقي بثقلها وشظاياها على كل خطوة دبلوماسية تخطوها دولة نحو أخرى.

لكن

هذه «الصعوبة» لم تمنع كثيراً من الدول من انتهاز «سهولة» إعادة تقويم علاقاتها مع دول العالم، خصوصاً في ظل المرحلة الراهنة، «المرحلة السبتمبرية» التي عصفت بكثير من الأجناس السياسية العتيقة، مُزّقت فيها صفحات ووضعت أخرى.

وصفحة

روسيا في أجناسنا السياسية ينبغي أن نعيد النظر فيها، وكتابتها بلغة العصر الآتية، لا تلك اللغة المكتوبة إبان الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

إن

ذكرى مرور 70 عاماً على الزيارة التاريخية للملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله إلى موسكو، لتفتح الطريق أمام بيرسترويكا، إعادة بناء العلاقات السعودية الروسية على ضوء القواسم التاريخية المشتركة، والمصالح المتبادلة، ثم الأحداث القائمة التي تملي على الطرفين إعادة

تتمين هذه العلاقات في بورصة العلاقات الدولية الراهنة.

وإن

أولى الخطوات لبناء هذه العلاقات الجديدة أو المتجددة، هي تعزيز واقع السفارتين في كل من البلدين، سواء على صعيد القدرات أو الإمكانيات والتجهيزات والصلاحيات التي تتوافر عليها السفارة. ينطلق هذا من الاهتمام بحجم السفارة السعودية في موسكو والسفارة الروسية في الرياض،

الحجم الحسي والحجم المعنوي، إذ إن السفارات هي عناوين الدول في الخارج، وأنموذجها المصغر، ولا ترضى دولة أن يكون أنموذجها في الخارج أضعف من صورتها الحقيقية.

ففي

ظلّ الهجمات المتوالية التي يشنها الإعلام المتحيز على المملكة تحت غطاء الوهابية، فإنه ينبغي وجود ملحق إعلامي في سفارتنا بموسكو يقدم للإعلام الروسي صورة بديلة عن الصورة المشوهة، بل إن الحاجة تتجاوز مسألة تصحيح الصورة المشوهة إلى الحاجة أساساً لوضع صورة في ذهن

الشعب الروسي عن المملكة العربية السعودية، حيث إن الانقطاع الدبلوماسي بين البلدين لسنوات طويلة جعل كثيراً من الشعب الروسي لا يعرف أبجديات المعلومة عن المملكة.

والمبادرة

بتعريف وإطلاع الشعب الروسي على خصائص المملكة وموقعها الديني والجيوسياسي في العالم، سيُضعف حتماً مفعول الدسائس الإعلامية الموجهة ضد المملكة إلى شعب أعزل من المعلومة الأصلية.

والجهود

الإعلامية المتفرقة التي تقدمها السفارة السعودية في موسكو الآن، من خلال المناسبات الوطنية والمعارض المصاحبة هي جهود طيبة ومحمودة، لكنها غير كافية لتقديم الجرعة المضادة لحمولات التشويه، ما لم يتول ذلك مكتب إعلامي متفرغ في السفارة يعمل ضمن خطة مهنية مبرمجة.

وفي

ظل تكالب الوفود التجارية الغربية والآسيوية على موسكو لتقاسم شركة الاتحاد السوفيتي واستثمار الثروات الطبيعية المتناثرة في تلك الأرض الشاسعة، فإن هذا يستلزم وجود ملحق تجاري في سفارتنا يقدم لرجال أعمالنا صورة واضحة عن مجالات الاستثمار المتنوعة في أرض روسيا التي

تحتاج إلى توسيع وتنويع يضاف إلى الاستيرادات السعودية من الاتحاد السوفيتي سابقاً، والتي كانت تنصب بشكل أساسي على بعض المنتجات البتروكيمياوية والأجهزة الكهربائية والمنتجات الصناعية كمواسير وأنابيب الصلب.

ولا

تخفى أهمية التسابق الاقتصادي مع الدبلوماسي في بناء العلاقات الدولية، ولعل إرسال وفود تمثل الغرف التجارية بين البلدين هو الخطوة الأسرع لتفعيل العلاقات الاستثمارية، خصوصاً أن رئيس الغرفة التجارية بموسكو حالياً هو الخبير المعروف يفجيني بريماكوف الذي يمثل وظيفتين

مهمتين، الأولى أنه صاحب تجربة سياسية عريقة أهّلته ليكون يوماً رئيساً للحكومة الروسية، والثانية أنه صديق للعرب، ومعروف بمواقفه الايجابية من القضايا والشؤون العربية.

أما

على صعيد العلاقات الثقافية والتعليمية، فرغم الجهود المشكورة التي تبذلها المدرسة (الأكاديمية) السعودية في موسكو بالمناسبات الثقافية والتعليمية مع الجاليات العربية والمستعربة، إلا أنه لا شك في أهمية وجود ملحق تعليمي وثقافي في السفارة السعودية بموسكو من أجل تكثيف

الروابط الفكرية بين الشعبين. وليس أشد صلابة ومثانة بين الشعوب من تلك التي تمتد في المسار الثقافي والفكري، إذ تذيب هذه المسارات كثيراً من الحواجز الوهمية، أو الحقيقية القابلة للحوار. وهنا تأتي أهمية وجود ملحق تعليمي ينظم وفود الطلاب الذين ينبغي ابتعاثهم إلى

روسيا، من أجل تنويع مصادر العلوم والثقافات، فروسيا تضم عدداً من الجامعات العالمية العريقة المعترف بها من لدن أعرق الجامعات الأوروبية والأمريكية، هذه الجامعات تضم عدداً من الطلاب الأوروبيين والآسيويين، خصوصاً من الصين والهند، وهما القوتان القادمتان من آسيا.

ولا يخفى أن روسيا ذات تجارب رائدة في مجال دراسات الطب والرياضيات والفيزياء، بالإضافة إلى حقول الدراسات الإنسانية كعلوم الاجتماع والفنون والحضارات. فابتعث الطلاب السعوديين إلى جامعات روسيا العريقة سيتيح الإفادة من إرثهم الحضاري والثقافي المتراكم على مدى ألف

عام من العلاقات التبادلية بين الحضارة الإسلامية والحضارة البيزنطية. ويمكن جعل هذه العلاقة المعرفية تبادلية أيضاً من خلال بعث عدد من شباب مسلمي روسيا إلى الجامعات السعودية لدراسة العلوم الإسلامية، الشرعية واللغوية فيها.

وعلى

نفس المنوال، فإن على سفارة روسيا في الرياض أن تعزز حضورها وموقعها في وسط الرياض الإعلامي والاقتصادي والثقافي، فعلى السفارة الروسية بالرياض مسؤولية كبرى تتمثل في تقديم صورة للشعب السعودي عن روسيا، تغيّر الصورة النمطية المكّسرة عن روسيا «المغلقة»! هذا عدا دورها

المتوقع في تحريك العلاقات التجارية عبر التنسيق بين الغرفتين التجاريتين هنا وهناك، وكذا في إظهار القواسم الثقافية المشتركة وإبرازها على السطح الإعلامي والميداني.

وأخيراً،

فإنه غني عن القول إن أول خطوة جادة لرسم مستقبل علاقات مزدهرة وفعالة بين المملكة العربية السعودية وروسيا الاتحادية تكمن في أهمية تجاوز عثرات الماضي، والحذر من فخاخ الحاضر، والثقة المتبادلة المبنية على حاجة كل من طرفي العلاقة إلى الآخر.

ينبغي

التوقف عن الاستخفاف بقدرة روسيا وإمكاناتها والقدرة على الإفادة منها، وبدلاً من الاعتقاد بأن روسيا كانت دولة عظمى وسقطت فحسب، علينا أن ندرك أن روسيا دولة سلخت جلدها وما زال جسدها ينبض بالحياة والدماء المتجددة.

في

المقابل، فإن على روسيا أيضاً بدلاً من الاعتقاد بأن المملكة العربية السعودية دولة نفطية فحسب، أو أنها كما يصوّرها الإعلام المتحيز، دولة تصدّر الإرهاب، النظر إلى الإمكانيات

السعودية التي يمكن استثمارها روسيا، وذلك من خلال موقع المملكة الديني والاقتصادي والسياسي

في العالم العربي أجمع بشكل عام.

(صحيفة)

الشرق الأوسط

24

أكتوبر 2002م)

## (وفد ثقافي) للمرة الأولى

في سبتمبر ٢٠٠٣ (بعد مرور سنتين على جريمة ١١ سبتمبر) أعلنت السعودية عن زيارة رسمية يقوم بها سمو ولي العهد (الملك عبدالله بن عبدالعزيز لاحقاً) إلى جمهورية روسيا الاتحادية.

وقد ضم الوفد المرافق لسموه، ولأول مرة، "وفداً ثقافياً"، بالإضافة إلى الوفدين السياسي والإعلامي المعتادين، وقد تشكّل الوفد الثقافي برئاسة معالي فيصل المعمر، وعضوية: الدكتور عبدالله العبيد، الدكتور عبدالرحمن الأنصاري، الدكتور أبو بكر باقادر، الدكتور سعد البازعي، الدكتور صالح الخثلان، الدكتور سليمان الجارالله، أ.فهد العبدالكريم، أ. عبدالله العيد وزياد الدريس.

وقد التقينا في اليوم الثالث من الزيارة بالملك عبدالله يرحمه الله، في مقر إقامته بالكرملين، حيث استضافه الرئيس بوتين. وقد أبدى لنا الملك عبدالله انبهاره بفخامة مباني موسكو واتساع شوارعها وعظمة العاصمة الروسية في شكلها العام.

وقد شارك الوفد الثقافي في سلسلة ندوات ومحاضرات أقيمت في أكثر من جامعة ومعهد بحوث في مدينتي موسكو وبطرسبرغ. وكان لي شرف المشاركة في ندوة بجامعة موسكو للعلوم الإنسانية عن: (دور الإعلام في التقارب بين المملكة العربية السعودية وروسيا)، إلى جانب المفكر الروسي الكسندر زينونيف، وقد قدمت ورقة بحثية عنوانها: "النفق المهجور.. مسيرة الإعلام السعودي الروسي المتبادل".

وفي ما يلي نص الورقة:

## النفق المهجور

ملخص:

لم يوجز أحد قوة الإعلام وسلطته، كما فعل شبنغلر قبل قرن مضى، حين وصف الصحافة بأنها جيش منظم له أسلحته وفروعه، والصحافيون هم ضباطه (المقررون)، أما جنوده (المنفذون) فهم القراء. وقد فلسف شبنغلر هذا التماثل الحربي للجيش والصحافة بالتزامن النشوئي بين البارود والطباعة،

فهما شقيقان توأمان!

هذا

المدخل السوسيولوجي لتبيان القدرة التغييرية للإعلام سيقودنا بسهولة وإيجاز إلى إدراك أهمية العامل الاعلامي في بناء العلاقة بين دولتين من هذا العالم. وتتأكد هذه الأهمية الإعلامية عندما تكون العلاقة المعنية هنا هي تلك التي بين المملكة العربية السعودية وجمهورية

روسيا الاتحادية، حيث تكثر المناطق المعتمدة أو المجهولة في النفق الثنائي المهجور بينهما منذ سنين طويلة.

فمرور

أكثر من نصف قرن على انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين يجعل الحديث عن الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية في كلا البلدين حديثاً مقتضياً ومشوباً بالحذر والانطباعات.

وفي

ظلّ تزامن هذه الخطوة التقاربية بين البلدين مع الحقبة «السبتمبرية»، التي ما زلنا نعيش أعراضها حتى الآن، يصبح الحديث عن تشكيل صورة نمطية إيجابية للمملكة في الإعلام والرأي العام الروسي أمراً صعباً.. لكنه غير مستحيل، تماماً كالصعوبة التي تصاحب تغيير الصورة النمطية

لروسيا في الإعلام والرأي العام السعودي.

وعندما

نتحدّث هنا عن صناعة الصور النمطية للبلدين فإننا نتحدث عن صورتين لكل بلد: روسيا ما قبل البريسترويكا وروسيا ما بعدها، والسعودية ما قبل أحداث سبتمبر والسعودية ما بعدها. أي أن الجهد الإعلامي سيتناول أربع صور نمطية لبلدين اثنين فقط!

ومهما

تكن الصعوبات، فإننا ينبغي أن نتذكر، بعيدًا من تشاؤمية شبنغلر، أن الإعلام الذي يمكن أن يكون الجيش والبارود الذي يحرق الأرض والناس، يمكن أن يكون هو نفسه البارود الذي يفجّر الألغام ويحطّم الحواجز والعوائق المصنوعة والمصطنعة بين بلدين وشعبين قابلين للتعايش والتنافع.

ربما

لم يكن نيتشه يدري أن نموذج «السوبرمان» الذي كان ينادي به ويسوّغ له الهيمنة على مسرح الكون، لن يكون السياسي الماكر ولا العسكري الفتاك ولا الاقتصادي الفطن، إن السوبرمان الذي يدير العقول ومعها الاجساد في عصرنا هذا، هو، لسوء الحظ أو لحسنه، الإعلامي المتمكن، البارع

في مهنته.. الماهر في براجماتيته!

وحيث

انتشر الآن الوعي بتعدّر الحصول على «إعلام خال من البراجماتية»، فإن هذا لا يعني بأي حال المساواة بين إعلام براجماتي بحت وإعلام لا يخلو من براجماتية.

ولذا

كان الإعلام متطابقًا مع النموذج النيتشوي، لأنه يستخدم كافة أذرعه وقبضاته من أجل القضاء على أي سوبرمان متوقع. ولذا فلا عجب أن يتشبهت أكاسرة الإعلام دومًا بالمقولة النيتشوية الشهيرة: «والحق أقول لكم إنني ضحكت مرارًا من أولئك الضعفاء الذين اعتقدوا أنهم أختيار،

بسبب أن لهم برائن واهنة ضعيفة».

مخيف

هذا المنطق، أليس كذلك؟

لكن

الأشدَّ خوفًا من ذلك، أن نخاف من شيء نزاوله كل يوم منذ أمد بعيد!

\*

\*\*

لم

يعد مدهشًا الحديث الآن عن أهمية الإعلام ودوره وتأثيره، يكفي أن ندرك أن الإعلام الآن قد تحول من وسيلة إلى هدف، كي نعلم إلى أي مدى وصلت القناعة بأهمية الإعلام عند الذين ذاقوا حلاوته ومرارته. كما أنه لا يمكن تخيل قيام أي نشاط كوني الآن دون إعلام يزيّنه وإعلام

يشينه في آن واحد.

والإعلام

أقرب ما يكون شبهها بالعقاقير، فهو داء ودواء، سواء على الصعيد الكمي أو النوعي. فمثلما يمكنني الادعاء بأن الفلسفة: نقصها غياب.. وزيادتها جنون، فإن الإعلام نقصه نسيان.. وزيادته كراهية وغثيان!

\*

\*\*

إن

الحديث عن دور الإعلام في توثيق العلاقات بين دولتين من هذا الكون سيقودنا إلى لجج من فلسفة الإعلام التي تبدأ من تصور الجدوى الكاملة وتنتهي بتصور الضرر الكامل للأداة الإعلامية في هذا السياق.

هذا

الهاجس يأتي على الصعيد العام بين أي دولتين، فكيف إذا كان بين دولتين مكتنزتين بالإرث والتاريخ الحضاري المتقاطع حيناً والمتغاير أحياناً أخرى.

إن

الحديث عن العلاقة بين المملكة العربية السعودية وجمهورية روسيا الاتحادية لا يمكن بأي حال أن يركز على عوامل ناشئة، دون الالتفات إلى عوامل أخرى أتت ما قبل الحدود والتاريخ الحديث.

فالقواسم

الحضارية، الدينية واللغوية والثقافية، التي استوردتها العقلية الروسية من محاضن العلوم الإسلامية والعربية، ثم أعادت تصديرها إلى تلك المحاضن مرة أخرى في عملية تبادلية من التباث الحضاري الثنائي، هي تجربة عريقة تمتد لأكثر من ألف سنة تفاعلية.

وهذا

يقودنا إلى الحديث عن الصور النمطية التي يراد صناعتها الآن للبلدين، روسيا ما قبل البريسترويكا وروسيا بعدها، والسعودية ما قبل أحداث سبتمبر والسعودية بعدها.

فروسيا

تنوء بهاتين الصورتين النمطيتين أمام الرأي العام العالمي كله، وليس الرأي العام السعودي وحده، وكذا حال السعودية بالمثل.

لكن

هذا التماثل لا يمنع من القول إن حظوظ روسيا في تحسين صورتها النمطية أمام الرأي العام السعودي أفضل من حظوظ السعودية أمام الرأي العام الروسي، وذلك للأسباب التالية:

-1

ازدياد الغضب والامتنعاض الشعبي السعودي من السياسة الخارجية الامريكية يزيد من فرص التفكير في الخيار الروسي، الذي قد يكسب المقارنة مع الخيار الامريكي في الوقت الراهن.

-2

الموقف الروسي من قضية فلسطين والعراق مقارنة بالموقف الأمريكي سيعزز من فرص تحقيق السبب الأول.

-3

انسلاخ روسيا من الشيوعية وتبعاتها يساهم بدرجة كبيرة في سرعة إنجاز الصورة البديلة لروسيا في الذهنية السعودية.

-4

وعلى حين أن صورة روسيا ما بعد البريسترويكا عند الرأي العام السعودي خير مما هي قبلها، فإن صورة السعودية ما بعد أحداث سبتمبر عند الرأي العام الروسي ليست خيرًا مما هي قبلها.

5

- إذا أضفنا إلى السبب الآنف، الانطباع الروسي بأن «الوهابية» هي التي تقف خلف كل عمل إرهابي داخل روسيا بشكل عام، وما يتم على أراضي الشيشان بشكل خاص، تصبح إمكانية تحسين الصورة السعودية أكثر تعقيدًا وصعوبة من تحسين الصورة الروسية.

يعزز

هذه الصعوبة ويزيدها تعقيدًا نشاط الإعلام المتصهين في روسيا الذي يلقي بثقله على كبرى القنوات التلفزيونية والصحف من خلال الإمبراطوريتين الإعلاميتين اللتين يديرهما المليونير اليهودي جوسينسكي والمليونير اليهودي بيريزوفسكي. ولسنا في حاجة إلى تبيان المصلحة الصهيونية

في تقطيع الحبال بين روسيا والعالم العربي، حتى لا تلعب روسيا دورًا شبيهًا بالدور الذي لعبه الاتحاد السوفيتي آنذاك في موازنة كفة التحيز الأمريكي لإسرائيل.

\*

\*\*

هل

يعني هذا تعذر الجدوى من العمل الإعلامي المتبادل؟

بالطبع

لا، لكنه يعني ضرورة الحذر من الفخاخ والألغام المنثورة في جادة الجهد الإعلامي المنتظر.

إن

أي جهد إعلامي متبادل بين الطرفين، وإن لم يكن قادرًا على صنع صورة ذهنية جديدة أمام الرأي العام الآخر، فلا أقل من أن يقوم بتكسير الإطار الذي يحمل الصورة المشوهة، الأمر الذي سيؤدي حتمًا إلى هشاشة الصورة وإمكانية ذبولها عاجلاً.

وبغض

النظر عن البعد السياسي للعمل الإعلامي بين البلدين، فإن هناك حقًا خاصًا لا ينبغي التنازل عنه أو التخازل فيه، فمن حق المملكة العربية السعودية قبله المسلمين، كما أن من حق المسلمين الروس عليها أن تقدم زخمًا كافيًا من المعلومات والتوضيحات حول الصورة الإسلامية المشوهة

للسعودية في بعض منصات الإعلام الروسي والالتباسات المنوطة بهذا السياق الحساس.

ومثلما

بدأت هذه الورقة بالأسئلة، سأغلقها بالأسئلة أيضًا، لكي تبقى مفتوحة!

-

فهل لدى الإعلام الروسي، ومن ثم الرأي العام الروسي، القدرة على تكوين صورة ذهنية عن السعودية دون الاتكاء على ما تضحّه الصحافة الغربية، اليمينية بالذات، من أخبار تشكيكية ضد السعودية؟

-

وهل سيساهم المزيد من اتساع الفجوة السعودية الأمريكية في المزيد من ردم الهوة السعودية الروسية؟

-

وهل ستبقى الشيشان الغصة الكبرى في حلق العلاقات السعودية الروسية؟

ربما

تكون الإجابة نعم، وربما غير ذلك، لكن المؤكّد أن أيّ تحسين للعلاقات السياسية والتبادل التجاري والثقافي بين البلدين لا بدّ أن يكون مسبوقاً بثقة رسمية وشعبية متبادلة، واطمئنان يزيل الخوف ومسببات الكراهية، إن وجدت، بين الطرفين، حتى تصبح الوطنية، كما يحثنا سبنسر،

هي حب المرء لوطنه أكثر من كونها بغضاه لكل وطن آخر!

(صحيفة)

الشرق الأوسط

18

سبتمبر 2003)

## مصافحة حارة بين السعودية وروسيا

وفي ما يلي مقالات حديثة النشر، نسبياً، عن الحراك الذي أحدثه ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان في العلاقات السعودية الروسية، عبر زيارة سموه إلى روسيا، ثم من خلال صورة المصافحة المتداولة عالمياً بين سمو ولي العهد السعودي وفخامة الرئيس الروسي.

بالإضافة إلى مقالات تأملية تالية.

مجدداً:

"حارة الكون تتسع لصديقين بدلاً من صديق واحد!"

حظيت

زيارة ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز إلى روسيا، الأسبوع الماضي، باهتمام إعلامي كبير وبتساؤلات سياسية أكبر. لم يكن الملفت للانتباه في تلك الزيارة عنصر واحد فقط كما قد يحدث مع بعض الزيارات السياسية المثيرة للجدل، لكنها عناصر عديدة اجتمعت

في ذلك الحدث، وقلّما اجتمعت:

أولاً:

الوجهة/ روسيا التي لم تعتد الأقدام السعودية على طرق خطواتها هناك كما تفعل في وجهات أخرى مألوفة، منذ قطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي في العام 1938 على رغم عودة العلاقات في العام 1990 ثم المحاولة التقاربية التي كانت من الملك عبد الله بن عبد العزيز إبان زيارته

إلى موسكو في العام 2003. لكن روسيا ظلّت الوجهة السياسية الأبعد، على رغم قربها الجغرافي.

ثانياً:

التوقيت / حيث تعصف بالمنطقة أحداث مربكة وحساسة، قد يرى البعض أنها لا تحتتمل المجازفة بخطوات غير مسبوقة أو بتحالفات غير معهودة.

ثالثاً:

الأجندة / حيث لم تكن تلك الزيارة المفاجئة في وجهتها وفي توقيتها زيارة مجاملة باردة، بل احتوت أجندتها على اتفاقيات وشراكات ساخنة ودقيقة.

إذا

كان قانون السياسة البراغماتي هو أنه ليس ثمة صديق دائم ولا عدو دائم، فإن الزيارة السعودية إلى روسيا هي زيارة سياسية بامتياز، إذ ذهبت باتجاه نفي الظن بأن روسيا عدو دائم، وكذلك خلخلة الاعتقاد بأن أميركا صديق دائم.

بشكل

أدق فإن الزيارة لا تتجه لنفي مبدأ الصداقة أو العداوة، لكنها تنفي الديمومة!

جعلتني

هذه الزيارة أستعيد ما سبق أن كتبتته من مقالات في العامين 2002 و2003 أدعو فيها إلى تجسير العلاقة بين العالم العربي والاتحاد الروسي، ليس من مبدأ استبدال حليف بحليف آخر، ولكن من منطلق تنويع التحالفات وتعيدها، وهروباً من التحالفات الاحتكارية التي عادةً ما تكون

باهظة الثمن. وقد جعلت عنوان أحد تلك المقالات هو العنوان الذي وضعته أعلاه، "حارة الكون تتسع لصديقين بدلاً من صديق واحد".

كما

استطردت في الحديث عن شكل العلاقة السعودية الروسية التي كانت، والتي ينبغي أن تكون، في مقال آخر جعلت عنوانه: «بريسترويكا العلاقات السعودية الروسية»، وما كنت أتوقع أن هذه البريسترويكا ستقترب من التحقق بعد 13 عاماً من تلك الكتابة.

وقد

كررت كثيراً أنني أدركت خلال ترداد متوالٍ لي على موسكو في المدة من 1999 إلى 2007 أن روسيا (والاتحاد السوفياتي سابقاً) ليست الوحش الذي كانت تصوره لنا المصادر الغربية، كما أنها ليست الملاك أو المدينة الفاضلة التي كانت تصوره لنا الأدبيات والمصادر الشيوعية.

من

منظور آخر، فقد فسّرت بعض وسائل الإعلام الغربية، والروسية أيضاً، الزيارة السعودية المفاجئة بأنها قد تكون مجرد نكايّة وكيد لأميركا التي هادنت إيران كثيراً في برنامجها النووي!

فلتكن

الاتفاقيات السعودية مع روسيا هي نكايّة وكيد، أليس الكيد من أدوات السياسة المعتبرة والفعالة؟!

إذا

كانت النكايّة والكيد سيجديان في إعادة وزن التحالفات في المنطقة ورسم خطوطها الواضحة فلا بأس من استخدامهما مع من تجدي فيهم تلك الأدوات السياسية.

المؤكد،

مجدداً أيضاً، بأن شعورنا أن لنا صديقين خير لنا من شعورنا بأن لنا صديقاً واحداً!

(صحيفة

الحياة

يونيو

(2015)

## قمة المصافحة السعودية الروسية

حظيت

مصافحة ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، في افتتاح قمة العشرين بالأرجنتين، باهتمام إعلامي كبير وتساؤلات سياسية أكبر.

(الحرب)

الباردة) استمرت سنوات عديدة و(السلام الحار) استمر ثواني عدة، ولكن كلاهما أشغل العالم بالتحليل والتأويل!

لم

يكن الملفت للانتباه في تلك المصافحة عنصراً واحداً فقط، كما قد يحدث مع المصافحات السياسية المعتادة، ولكن أكثر من عنصر:

أولاً:

تلك المصافحة (الاستثنائية) لم تكن بين ولي العهد السعودي ورئيس خفيف لدولة ثقيلة أو رئيس ثقيل لدولة خفيفة، بل كانت مع الثعلب بوتين الرئيس الثقيل لدولة قطبية ثقيلة.

ثانياً:

لم يكن شكل المصافحة من النوع الذي يحدث بين أي شخصين اعتياديين، بل هي من النوع الذي يحدث فقط بين صديقين، بل صديقين منسجمين متوافقين. وهو الذي أثار دهشة المراقبين بسبب ندرة الذين استطاعوا أن يكونوا أصدقاء لبوتين!

ثالثاً:

توقيت المصافحة لم يكن عابراً، حيث كان عدد من وسائل الإعلام، والفضائيات "المعروفة"، تراهن على أن ولي العهد السعودي لن يحظى بالاهتمام الكافي أثناء قمة العشرين. لكن تلك الجهات الإعلامية، والسياسية المختبئة وراءها، خسرت الرهان والأمنيات، ليس فقط بسبب مصافحة بوتين

الأكثر وضوحاً وضجيجاً، ولكن أيضاً ما سبقها ولحقها من مصافحات ولقاءات ومهامسات  
للأمير السعودي الشاب مع معظم قادة العشرين.

رابعاً:

الانسجام السعودي / الروسي الذي أبانت عنه المصافحة، مثل نفياً للمزاعم التي يطلقها  
بعض الكتاب والمحليين عن الاحتكار الأميركي للعلاقات السعودية الدولية؛ السياسية  
والاقتصادية منها. وتأكيداً على أن السعودية الجديدة تبحث عن العلاقات التي تخدم  
مصالحها، سواءً اتجهت

غرباً أو شرقاً.

(صحيفة

الحياة

ديسمبر

(2018

## بوتين و «نظرية المغامرة»!

لم

يكن فوز الرئيس فلاديمير بوتين بولاية رئاسية جديدة للاتحاد الروسي مفاجأة، لكن  
المفاجأة كانت الاكتساح الذي حققه الثعلب الروسي من بين المرشحين الثمانية لمنصب  
الرئاسة. فقد حصد بوتين أكثر من 76 في المئة من الأصوات، وهي أعلى نسبة يحصل  
عليها من بين

السباقات الانتخابية الأربعة التي خاضها من قبل!

وكان

من المتوقع أن يحصل صاحب المركز الثاني في السباق المرشح الشيوعي بافل غرودينين  
على نسبة عالية من أصوات الشيوخ والعجائز الروس بما يمثله غرودينين من حنين  
ماضوي (نوستالجيا) للزمن الشيوعي، وأن يحصل المرشح الليبرالي فلاديمير  
جيرينوفسكي على نسبة عالية من أصوات الشباب

التواقين للقطيعة مع الماضي والدخول في عوالم الحياة الغربية. لكن المرشح الشيوعي كان في حقيقته رأسالياً كبيراً ما أفقده صدقيته أمام الناخب، فحصل فقط على أقل من 12 في المئة من الأصوات، أما المرشح الليبرالي فقد أضرت به انحيازاته مع الغرب الأمر الذي يهدد هيبته

روسيا فلم يحصد من ثقة الشباب أكثر من 6 في المئة من الأصوات!

لا

تنفك دلالات هذا الفوز الساحق من التأكيد على سخونة الحرب الباردة الثانية بين روسيا وحلفائها من جهة وأميركا وحلفائها من الجهة الأخرى. يصعب تحديد نقطة البداية الفعلية للحرب الباردة الثانية، إذ لم يكن الفاصل الزمني طويلاً بين الحربين الباردتين، الأولى والثانية،

حتى يسهل تمييز نقطة نهاية الأولى وبداية الثانية، باستثناء فترة الرئيس غورباتشوف التي يمكن اعتبارها فترة هدنة حقيقية بين روسيا والغرب. أما في فترة الرئيس يلتسين فلم يكن خافياً أن الذي كان يدير المشهد السياسي والاستخباراتي حينذاك هو بوتين وليس يلتسين.

وإذا

كان بوتين قد أصبح رئيس روسيا بالإنابة منذ 31 ديسمبر 1999، بعد استقالة الرئيس يلتسين، فهذا يعني أن الرئيس بوتين، إذا أنهى فترته الانتخابية الجديدة التي ستنتهي عام 2024، سيكون أمضى على هرم السلطة

في روسيا أكثر من 25 عاماً!

المؤكد

أن الناخب الروسي حين صوّت لبوتين لم يكن يصوت لرئيس روسيا من الداخل، وإلا لربما اختار مرشحاً آخر غير بوتين، ولكنه صوّت لرئيس روسيا في الخارج، للرئيس الذي سيحفظ هيبته روسيا من محاولات الغرب تركيعها، بدءاً من أزمة أوكرانيا ومغامرة اقتحامها واحتلال جزيرة القرم

وانتهاءً بملاسات قصة تسميم الجاسوس!

نظرية

المؤامرة تقول: إن لندن افتعلت قصة تسميم الجاسوس السابق سيرغي سكريبال وابنته يوليا بغاز الأعصاب، كي تربك المشهد الانتخابي الروسي، طمعاً في تخويف الشعب الروسي من عواقب تهور بوتين!

بينما

نظرية المغامرة تقول: إن بوتين هو الذي افتعل قصة تسميم الجاسوس، كي يكشف للشعب الروسي، وهو في طريقه إلى صناديق الاقتراع، القلق من التهديدات التي يُضمرها الأوروبيون والأميركان لروسيا لو جاءها رئيسٌ ضعيف!

(صحيفة

الحياة

20

مارس 2018م)

## هذا الروائي عاش مرتين فقط

يقال

إن الروائيين يعيشون أكثر من حياة واحدة، حياتهم وحياة أبطال رواياتهم (الافتراضية). لكن الروائي الروسي فيودور دوستويفسكي عاش فعلاً مرتين، حياة قبل إعدامه الذي تم، وحياة أخرى بعد إعدامه الذي لم يتم!

يتحدّث

دوستويفسكي الكهل إلى زوجته الشابة أنا: «كنت واقفاً في الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي سينفذ بعد خمس دقائق. كلنا في قمصان الموت موزعين على وجبات من ثلاثة محكومين، وكنت الثامن في التعداد ضمن الوجبة الثالثة. أوثقوا الثلاثة إلى الأعمدة وبعد دقيقتين أطلق

الرصاص على أول وجبتين، ومن ثم يأتي دوري... يا إلهي، ما أشدّ رغبتني في الحياة... وفي اللحظة الأخيرة أعلن وقف التنفيذ بأمر من القيصر. حلّوا وثاقي ورفاقي وقرأوا حكماً جديداً على كلّ منا، وكانت من نصيبي هذه المرة الأشغال الشاقة أربع سنين، فما أعظم سعادتني. أمضيت

بقية الأيام قبيل الرحيل إلى المنفى (في سيبيريا) أغتني وأترنم في الثكنة كل يوم، ما أشد فرحتي بحياة وُهبت إليّ من جديد». لم يكن يتصور الروائي العظيم أن قراء كُثراً سيكونون أكثر فرحاً بالعفو عنه، إذ في الجزء الثاني من حياته، حياته الثانية، سيكتب دوستويفسكي

أعظم الروايات العالمية حتى اليوم: الجريمة والعقاب، المقامر، الأبله، الإخوة كارامازوف. لو تم فعلاً تنفيذ حكم الإعدام، من كان سيكتب لنا تلك الروايات الخالدة؟ حتى العظيم الآخر تولستوي، صاحب الحرب والسلام وأنا كارنينا، ما كان ليستطيع كتابة روايات دوستويفسكي

كما فعل صاحبها الأصلي، فذاك يستخدم في طبخ رواياته بهارات غير التي يستخدمها هذا تماماً.

لم

يعش كل الذين عُفي عنهم من الإعدام مثل الذي عاش حياة أخرى، فبعضهم أصيب بالجنون من هول قرار العفو، والبعض الآخر انزوى وانطوى عن الحياة فكأنه أعدم نفسه إذ لم يُعدمه القيصر! أما العنيد دوستويفسكي، المصّر على استكمال حياته، فلم يكن حكم الإعدام ثم السجن والأعمال

الشاقة والمنفى هي المصيبة الوحيدة في حياته، فقد كان مريضاً بالصرع وبالرئوي، وكان فقيراً ومصاباً بداء القمار، وكان مراقباً من الحكومة القيصرية ومطارداً من الدائنين ومحسوداً ومستهدفاً من الكتاب والنقاد. تقول زوجته أنا غريغوريفنا في مذكراتها عن زوجها: «ولم

يبذل النقاد، ما عدا بيلينسكي ودوبروبولوف، آنذاك جهداً للكشف عن موهبته. تجاهله بعضهم، فيما أضمر له البعض الآخر العدا، بل جأهروه به. وعندما أراجع كتاباتهم اليوم بعد خمسة وثلاثين عاماً من وفاة دوستويفسكي، تدهشني بسطحيتها وحقدتها الأعمى».

لا

تنزعجي يا سيدة أنا، فما زال زوجك حياً ومات الحساد

(صحيفة)

الحياة

(يوليو 2018م)

## اعترافات

قالت

السيدة جيرمين تيبون، رائدة علم السلالات (الإثنولوجيا) في آخر حياتها: "إن ما ساعدني على التنوّع هو الإثنولوجيا، فهذا العلم جعلني منذ البداية أحترم ثقافة الآخرين". ولذا ناهضت تيبون الفرنسية استعمار بلدها فرنسا ضد الشعب الجزائري، لأنها لا ترى ميزة للعرق الفرنسي

يبزر له استصغار المكوّن الشعبي الجزائري.

إذن

فالسّر يكمن في "الإثنولوجيا"!

حسناً،

هل أسمح لنفسي أن أقول إنني أيضاً ممّن غسلتهم الإثنولوجيا من طبائع الاستفزاز والاستعلاء، فما عدت أرى تميّزي إلا بما عملته.. لا بما ورثته.

ساعدني

في ذلك أني بعدما درست في المرحلة الجامعية علوم البيولوجيا والفيزيولوجيا والوراثة، ورأيت تحت المجهر أن كروموزومات البشر كلها متشابهة، ليس لإنسان كروموزومات أكثر من الآخر، ولا لشعب كروموزومات ملوّنة وشعب آخر كروموزوماته بالأبيض والأسود! ثم أتيح لي في دراستي

العليا أن أحقق أمنية قديمة هي دراسة السوسيوولوجيا، وبالتحديد سوسيوولوجيا الثقافة أو علم اجتماع الثقافة، الذي يدرس العلاقة بين البنى الثقافية أو الدينية أو المعرفية وعلاقتها بالأطر الاجتماعية. أي العلاقة الجدلية المتلازمة بين ايديولوجيا وثقافة المجتمع مع واقعه

المادي والاجتماعي، وأيهما الذي يطغى على الآخر ويجرّه إلى تصنيفاته، كما قال ماركس "ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل يحدد وجودهم الاجتماعي وعيهم".

ساعدتني

دراسة السوسيولوجيا والاثنولوجيا أن أرفض المقولة الشهيرة لكيبلنغ، إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. وأن أستبدلها بمقولة الشاعر الألماني الكبير غوته: "إنّ من يعرف نفسه يعرف الآخرين، الشرق والغرب لا يمكن أن يفترقا". وبالفعل فلا حاجة للغرب أن يبقى إذا لم يكن

هناك شرق!

علّمتني

الإثنولوجيا أن لا أحمل أحكاماً مسبقة ضدّ فرد أو شعب بعينه، وأن لا أنظر إلى الآخر المختلف عني بازدراء أو احتقار يورثني التعالي عليه. عندها أصبحت أشعر بلذة مضاعفة ووعي بين لمضامين القول الربّاني الكريم: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً

وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

هكذا

حرّكت فيّ دراسة السوسيولوجيا والاثنولوجيا هاجس المساواة والإيمان بالتنوع والتعددية، على إني ما زلت أتعلم وأدرّب نفسي على ذلك، لأن الإيمان المطلق بمزاولة التعددية وممارسة المساواة ليس بالأمر الهين، إن لم يكن طوباوياً مستحيلاً، خصوصاً في هذا العصر الذي تلوّثه

حرائق وأقاويل صراع الحضارات.

ومثلما

أن السيدة تبيون مدينة في نضالها ضد الاستعمار لعلم الاثنولوجيا، فأنا مدين أيضاً بمقاومة الاستعمار الذي في داخلي لعلم الاثنولوجيا والسوسيولوجيا. مدين لابن خلدون، وأوغست كومت، وعلي الوردي، وقوميلوف، وليفي شتراوس، وتاتيانا فودروقتا.

صحيفة

الحياة

30

أبريل 2008م

## خاتمة

في

العام 2007 تحدّد موعد مناقشة أطروحتي للدكتوراه، بعد أن تمّ تأجيله مراراً بسبب الظروف الصحية المتردية للسيدة فودروثنا.

وقد

حصلت على درجة الدكتوراه بحمد الله وتوفيقه. لكني حصلت من التجربة الروسية على ما لا يقلّ أهمية عن الشهادة.

كان

الانفتاح على عالم جديد وثقافة جديدة وشعب جديد ولغة جديدة طريقاً لي نحو إعادة تموضع ثقافي ومعرفي، ما كان لي أن أحققه لو قدّر لي أن أكمل دراستي في دول الابتعاث المعتادة. هذا ليس تقليلاً من مستوى الدراسة في تلك الدول، لكنه محاولة لفت انتباه إلى (القيمة المضافة)

لدراسة في بلد غير مطروق كروسيا والصين والمكسيك والسنغال، وغيرها من البلدان ذات العوالم البعيدة عنا.

شكراً

لروسيا التي ألهمتني شغفاً جديداً في حياتي.

**والحمد لله رب العالمين**

<a href="#">Cover</a>	.1
<a href="#">cover1.xhtml</a>	.2
<a href="#">كتاب زيادوف</a>	.3
<a href="#">الإهداء</a>	.4
<a href="#">تمهيد</a>	.5
<a href="#">القسم الأول</a>	.6
<a href="#">القسم الثاني</a>	.7
<a href="#">خاتمة</a>	.8
<a href="#">الغلاف كتاب زيادوف الإهداء تمهيد القسم الأول القسم الثاني خاتمة</a>	.9

